راحيل امام الله

اسطورة

للكاتب النمساوي ستيفان زويغ[1]

نقلها الى العربية : صديق شيبوب

قصة زواج « راحيل » من « يعقوب » كما وردت في التوراة معروفة وهي أنه لما أضمر « عيسو » الشر لأخيه يعقوب لأبيه اتخذ منه حقوق البكورية بصحفة عدس ومكر بأبيه « اسحق » فأرسله امه عيشو فباركه ، ولما علمت أمه ، فقد اعتزم بيش أخيه فأرسلته الى شقيقها « لابان » حيث علق قلب « راحيل » صغيرة ابنة خاله وكانت حسنة الصورة شهية المنظر . فخدم خاله سبع سنوات على ان يزوجه بها ، ولكن لابان خدع يعقوب فأدخل عليه مساء الزواج « ليا » كبيرة ابنيه ، وكانت عيناها ضعيفتين . فلما أصبح يعقوب احتج لدى خاله ، فوعده انه هو خدمه سبع سنوات اخرى . ان يزوجه راحيل وهكذا كان

وقد نسج الكاتب النمساوي المعروف « ستيفان زويغ » أسطورة بناها على رواية التوراة رأينا ان ننقلها الى العربية عن الترجمة الفرنسية للفكرة الانسانية التي تنطوي عليها والوصف الجميل الذي حوته

(1) Stefan Zweig : Rachel contre Dieu (Légende)

عاد شعب أورشليم المتمنت المنقلب من جديد الى تنامي التحالف الذي اقسم على احترامه كما عاد من جديد الى ذبح القرابين للأصنام النجاسة المجلوبة من « صور » و « عمون » ولم يكفه ان أقام الهياكل وحرق البخور لآلهة مزيفة ، فوضع « البعل » في بيت الله الخاص ، في الهيكل الذي بناه خادمهُ سليمان والذي دنستهُ دماء الذبائح الخاطئة ودخانها المتصاعد

عند ما رأى الله شعبهُ يسخرون منه في هيكله المقدس لمبادئه استشاط غضباً فمد يده النبي فاهتزت البيوت طويلاً لصوته ، ذلك انهُ كان قد تعهد صبره واستقر رأيهُ على ان يقضي على المدينة التي تمرغت في حمأة الخطايا وان يثير ساكنيها كما يثير الزوان في أنحاء العالم الواسع . فدوّى قضاؤه كالرعد القاصف من أقاصي اللانهاية الى أقاصيها

ارتعشت الأرض والسماء خوفاً من غضب الله ، وأمست الأنهار في الحرب ، وانحت البحار وتمايلت الجبال كما يتمايل السكارى ، وحنت الصخور رؤوسها ، وسقطت العصافير صرعى على وجه الأرض ، وأخفت الملائكة رؤوسها تحت أجنحتها الواسعة . والملائكة تجهل الألم ولكنها لا تستطيع احتمال منظر الغضب ماثلاً في عيني الله . وكانت وعدة صوته قد اخترقت الآذان كأنها حراب

لم يبق على وجه البسيطة سوى أهل المدينة المقضي عليها ، فقد ضربوا على آذانهم بالصمم وظلوا يجهلون قضاءه عليهم . الا انهم شعروا فجأة بان الارض تزلزل ، وان ضياء الشمس قد خبا وسط النهار ، وان عاصفة شديدة قد قامت فاقتلعت أشجار الأرز وحطمتها كأنها أعواد من القش ، وجعلت الغابات تلتف على نفسها كأنها حيوانات صغيرة ، ولم تلبث الغيوم ان جاءت محمولة على أجنحة الرياح فغطت وجه السماء بنقاب قاتم . وكان البرق مخيماً على رؤوس الكفرة بينما الأرض تميد تحت أقدامهم كأنها صارت مياهاً

فاستولى عليهم الذعر واندفعوا الى خارج بيوتهم محاولة أن تهار السطوح على رؤوسهم وازدادوا خوفاً وذعراً حين رفعوا أبصارهم الى السماء لان الغيوم المتلبدة فيها كانت أشد تهديداً من البخور ، وكان الهواء المحرق يترك في أفواههم طعم الكبريت . وحينئذ أخذوا يمزقون ثيابهم ، كما يفعل المحزونين ، ويذرون الرماد على رؤوسهم . وحينئذ أخذوا يرتمون على الارض متضرعين الى الرب العزيز القدير يسألونه الصفح والمغفرة . ولكن نداءهم ذهب سدى لان الغيوم كانت تشتد تلبداً وتملأ كل سماء بجلب الثور للبلاد

ظهر غضب الله تعالى شديداً فوبخ فاستيقظ الأموات من رقادهم ، وخرجت أرواح الراحلين من سباتها العميق لانهُ اذا كان الموتى لا يرون وجه الله فلن تستطيع أن يسمعوا صوت النفخ في الصور يوم القيامة وان يتبينوه . وهكذا قاموا واقفين وقوفاً في قبورهم ، وخرجوا من الأرض التي كانوا مدفونين فيها ، واجتمعت أرواح الآباء والأجداد فكان صوت حفيف

أجنحتها كصوت الطيور التي تقاوم عاصفة شديدة ، وتقدموا الى الله ضارعين بأن يرد نقمته عن أبنائهم وبيوتهم والمدينة المقدسة . واستشهد ابراهيم واسحق ويعقوب ومن اليهم من الانبياء الأقدمين ورفعوا تضرعاتهم ، ولكن الرعد القاصف مزّق أصواتهم وغطّى عليها ، وكانة الله القدير العزيز ازالت الجلجلة القاتم : لقد احتمل سبحانه وتعالى طويلاً بكران الجيل من الذين كفروا بنعمته ، أما الآن فقد قرر هدم الهيكل كي يسرفه في بظاهر غضبه اولئك الذين تجاهلوه عندما كان يبغي عليهم نعماءه وعطفه وحبه . ولما فشل هؤلاء الأنبياء في ضراعتهم تقدم الأنبياء المرسلون كموسى وصموئيل وإيليا واليشع ، اولئك الذين جرت على ألسنتهم كلمة الله وعبروا عن افكاره ، فرفعوا رجاءهم الحار ولكن الله لم يصغ اليهم وردّت الرياح الى الخلف الكلمات التي تلفظوا بها . وكان البرق يشتد قوة وعنفاً والنار تأهب لتلتهم الهيكل

وكان الصالحون قد حارت عزائمهم ، وكانت أرواحهم الذليلة ترتجف عاجزة أمام الله . ولزموا الصمت مخافة ان يتحدّوا غضبه . وعندما سكتت جميع الاصوات على الأرض مرتعدة ، تقدمت «راحيل» أم بني اسرائيل اذ اجتزأت وحدها على ان تفلت من بطش غضبه . فقد نامت هي ايضاً من قبرها في بلدة «راماح» صوت غضب الله فجرت الدموع من عينيها حين فكّرت بمصير أحفادها ثم تسلّحت بإرادتها وتقدمت نحو غير المنظور وجثت أمامه وبسطت يديها ورفعت اليه هذه الكلمات :

« اللهم أيها العزيز القدير ، ان قلبي ايرتعد حين أخاطبك ، ولكن لماذا ينحني قلبي اذا كان عليه أن يضطرب امام غضبك ؟ ولماذا أعطيتني شعور اذا كانا لا يستطيعان ان تقدرا في صوتهما الأم عن الخوف ؟ اني أخشاك ولكني اتقدم اليك بنداء حار باسم الحب . ان المحنة التي وقع فيها ابنائي تدفعني لأرفع صوتي المتواضع الى عرشك السرمدية . انك لم تمنحني الذكاء ولا المجادلة فلا أجد شيئاً يهدىء من ثورة غضبك ، غير أن أتحدث اليك عن نفسي أنا التي عرفت في بعض أيام حياتي كيف أكظم غيظي . انك لا شيك عليم بما سأقوله لك قبل ان أتلفظ به ، لأن كل كلمة كائنة فيك قبل ان تصير صوتاً تتلفظ به شفة بشرية ، وأنت تعرف كل حركة قبل ان تبدو على يد مخلوق . ولكني أضرع اليك ان تصغي الي حتى باخطاء الهالكين . »

ولكنت راحيل رأسها بعد ان تلفظت بهذه الكلمات . ولكن الله تعالى رأى وجهها ودموعها فأمسك غضبه ليصغي الى المرأة التي تتألم

واذا أصغى الله في تعاونه الى نحيبها ، خلت الأجواء ، وتوقف الزمان عن سيره ، وسكتت الرياح ، واختنق الرعد ، ولم ترتجف الحياة ، ولم تعاود العصافير طيرانها ، ولم تخرج بعد ذلك نسمة من فم أحد . أما الساعات فقد أصبحت خرساً ، والملائكة كأنها جمدوا ، لأن انتظار الله يوقف كل تنفس ، ويخفت كل ركز في السماء . فالشمس نفسها تجمد والقمر يلزم السكون وجميع الأنهار تشاطر انتظاره وتتوقف عن السيل

وكان القوم على الارض يختفون حيث يجدون ملجأ جاعلين ضراعات « راحيل » في سبيلهم والتفات الله الى كلامها . والناس يجهلون عادةً ما يجري في السماء ، فلم يفطنوا الاَّ لأمر واحد وهو ان الزوبعة هدأت فجأة . على أنهم حين عاد اليهم الأمل ورفعوا أعينهم الى السماء وجدوا أنها لا تزال ملبدة بغيوم أشد ظلاماً من القبور ، وأنها لا تزال تنذر بويل شديد بازدحام من صمتها ، فعاودهم الوجل وأحسوا بأن هذا الصمت يحيط بهم كالكفن

أما « راحيل » فقد شعرت بأن الله قد أصغى اليها فرفعت رجيها المبلل بالدمع ووجدت في قلبها المقدرة على الكلام بالرغم من خوفها فقالت : —

« تعلم يا أبي أني ابنة « لابان » ، واني كنت راعية في بلاد « حاران » تحرس غنم والدي طوعاً لأوامره »

« وبينما كنت أردُ الماء مع الغنم ، وكانت الخادمات عاجزات عن تحريك الحجر العظيم الذي يغطي فتحة البئر ، جاء ما شاب غريب فأعانتا وأدهشنا بقوة ساعديه . وكان ذلك الشاب « يعقوب » الذي أرسلتهُ لنا ، وهو ابن أخت أبي . فلما ذكر لي ابيهُ استصحبتهُ الى منزلنا . ولم ينقض على تعارفنا ساعة من الزمان حتى كانت عيناه تتقدان ، وجسمه شعر كل واحد منا بظمأ نحو الآخر . كنت استيقظ في الليل لأفكر فيه . ترى اللهمَّ إني لا استحي من الدم الذي كان يفيض في عروقي ، ألست أنت الذي خلقت فينا هذه الأعجوبة ؟ ألست أنت الذي أوقدت في قلوبنا جذوة الحب ؟ أنت يا أبي وحدك الذي شئت ان تقدم العذراء نفسها للرجل ، وان تشتي العيون والأجسام تتصل في ترق وحرارة . لذلك لم تقاوم الجذوة التي اتقدت فينا وبعقوب ، منذ يوم الأول الذي تقابلنا فيه على الزواج

ولكن والدي « لابان » ، كما تعرفهُ ، رجل شديد الوطأة ، قلبهُ قاس كالارض التي حرثها ، قاس كغيران الثيران التي استبدها . وعندما أخبره يعقوب رغبته في الزواج بي شاء ان يجرب مواهبه ليعرف من هو ، كما يريده ، ذو مثابرة على العمل وصبر في الحياة . فاشترط عليه ان يعمل في خدمته سبع سنوات ليبرهن على انهُ أهل لأكون زوجة له . وعند هذا الشرط سرت في جسمي رعشة كما ان دم « يعقوب » جمد في عروقه ، ورأينا ان فترة الانتظار طويلة لانهاية لها . إني أعترف ان سبع سنوات كقطرة ماء في بحور أبديتك ، او طرفة عين من نظرك السرمدي لأن الزمان يجري كأنهُ لا نهاية له . ولكن اللهمَّ انظر الى قصر حياتنا ، سبع سنوات تمثل عشر عمرنا لأنه لا تكاد عيناه تتفتحان لنور الله المقدس حتى تدركهما ضعفة الموت . حياتنا تجري سرعة النهر في فصل الربيع ، ولا تستطيع الأمواه المتحدرة ان تعود الى نبعها الذي صدرت منه . لذلك ظهرت لنا هذه السنوات السبع كأنها الأبد الذي لا يحد . سبع سنوات نظل فيها مفترقين بينما جسمانا متقاربان ينتظر أحدهما الآخر ، وشفاهنا تجف في انتظار القبلات

« على ان يعقوب وفي بالشرط ، واستلت لمشيئة والدي . وشدَّ كل واحد منا على قلبه ليرغمه على الطاعة والصبر »

« ما أشد وطأة هذا الصبر على مخلوقيْك لأنك جعلت فيهما قلباً ينبض بالحياة وغرست فيهما روحاً يخيفها قصر الحياة وفوات العمر . اللهمَّ انا نعرف ان الربيع قريب من الخريف ، وان صيف الحياة قصير المدى ، فلا غرو اذا اضطربت دماؤنا لطول الانتظار ، وشعرنا برغبة ملحة في ان نعمل أي ما نشتهيه ونتم بالزمان الذي يمر مسرعاً . كيف نتعلم الانتظار ونحن نعرف ان كل يوم يمر يدنينا من الشيخوخة ، او لنستطيع الصبر بينما نرى حياتنا تخبو كل ليلة ، وكيف لا نحترق بينما نرى النار تلتهم الزمان وتفنيه شيئاً فشيئاً ، ثم كيف لا نسرع بينما الفرات لاحق بنا يطاردنا . بالرغم من ذلك فاننا استطعنا ان نتغلب على نفسينا وان نقاوم حبنا ، بينما كل يوم يمضي كأنه الف يوم أمام باكنا نشعر به من حنين وحب . على أنهُ حين انقضت هذه السنوات السبع حسبناها كأنها يوم واحد . اللهمَّ هكذا انتظرت يعقوب الذي كان يحبني

« عند نهاية الموعد ذهبتُ فريحة الى والدي «لابان» أسألهُ أن يمن بيدي ابنته ، ولكنه أبى أن ينظر الى عيطتي وسروري فأظلم جبينه وظلَّ صامتاً ثم أمرني ان انادي بنفسه «ليا»

« اللهمَّ انك تعلم ان « ليا » أكبر مني لأنها خرجت من بطن امها وتقدمتني الى بدننا بعامين وقد أعطتها وجهاً غير مليح لا يلفت اليه انظار الرجال . وكان يحزنها أن أحداً لا يرغب في الزواج منها . وكان حزنها ولين أخلاقها قد جعلاها حبيبة الى نفسي . ولكنهُ حين أمرني والدي ان أناديها لم أخرجني من حضرته عند ما دخلت عليه . شعرت انها تشاركني سعادتي وانها يخفيان شيئاً عني . فاختبأت بحيث أسمع ما دار بينهما من حديث . سمعت أبي يقول لها :

« اسمعي يا « ليا » . لقد انقضت السنوات السبع التي « اشترطت على نفسي بعقوب » وان يعمل لقاءها في خدمتي لأزوجهُ من « راحيل » ، ولكني لا أريد ان أزوجه بالزواج من أجل « اذ ماذا يحدث لو أن الصغيرة غادرت المنزل قبل الكبيرة . فلا شك الكبيرة مقدمة « للزواج « عرضة لسخرية الخدم . إن أمراً كهذا لا يرضي « الله لأنهُ خرق لعرف راسخ . خلقنا الله « في بدء العالم وفي فجر الأرض لكي نملأ الأرض بالمخلوقات حتى يعمرها الى مستقبل الوفاء « مؤلفة يسجون باسمه ، انهُ لا يريد ان تظل أرضه غامرة وان تفنى المخلوقات التي نفخ فيها « الحياة بدون ذرية ونسل . ليس عندي غنمة أو بقرة بل انت ، فكيف أتحمل أن تظل ابنتي « بكراً وان تعيش في الذل والعار . فاستعدي يا « ليا » لكي تلبسي ثياب العرس واجتهدي « بأن تخفي به جيداً وجهك حتى لا يعرفك « يعقوب » عندما أقودك اليه بدلاً من راحيل »

« هكذا تحدث والدي الى « ليا » التي كانت تضطرب وجلاً ولا تجيب جواباً . وعندما سمعت هذا الحديث الذي خيب آمالي شعرت بثار الغضب تتقد في قلبي ضد ابي « لابان » واختي « ليا »

أغفر لي اللهمَّ ولكن أرجو أن تذكر أن « يعقوب » لم يخدم سبع سنوات إلاَّ لأجلي ، واما تمّمنا سبع سنوات كاملة كنا فيها منفصلين ، ثم وجدت ان من أحبه أكثر من نفسي ، سيضم بين ذراعيه اختي بدلاً مني . فطار عقلي وثرت على والدي كما ثار أولادي عليك ، أنت ايوم الحيُّ القيوم . أنت اللهمَّ الذي جعلتنا نضطرم غضباً عندما تألم نظلم بنحق بنا . لذلك ذهبت سرًّا الى « يعقوب » وهمست في أذنه أن يأخذ حذره لأن والدي سوف يخدعه ، وانهُ سيبدلني بأختي . ولكي آتيهُ من الوقوع في الشرك المنصوب أعطيته علامة ليعرفني بها وهي اني ، إذا كنت أنا المزفوفة اليه ، أقبله ثلاثاً في حينه قبل ان أدخل خبائه

« عند ما جاء المساء قدَّم والدي نقاب العرس لاختي فأسدلته على وجهها متى حقّ لا يتبينه يعقوب . أما أنا فأدخلني والدي أحد الأعراء حتى لا يراني الخدم فيخبروا « يعقوب » بما دبره

« قبعت في مكاني كأني عصفور من عصافير الليل . وكنت كلما مرت ساعات الليل شعرت بالضيقة تشتد في نفسي حتى خيّل اليَّ ان قلبي ينازعني صدري لشدة الألم لأنك تعرف يا الهي بأني كنت لا أستطيع الرضى بزواج اختي بيعقوب . وكنت أعض يدي بينما كانت الصنوج والطبول تضرب في الدار . وكان قلبي فريسة لألم وغيرة كأنهما أسدان ينهشانه

« وهكذا كنت أنتهم غيظي وأنا في عزلتي سجينة منسية . وكانت الظلمة التي سادت الغرفة تحكي الظلمة التي قامت في نفسي حين سمعت الباب يفتح بغتة . لقد كانت يا الهي اختي « ليا » التي خلصت اليَّ سرًّا قبل ليلة العرس . لقد عرفتها من وقع قدميها ، ولكني أشحت بوجهي عنها كأني لا أتبينها ، لأن قلبي لم يكن راضياً عنها . على أنها اقتربت مني ملاطفةً وداعبت بأصابعها شعري في رفق وحنان . وعندما رفعت نظري رأيت حدقتي عينيها تضطربان جزعاً ، وقد تكدر بريقهما

« أستطيع ان أقول يا الهي أني شعرت وتنذر بالشر يتغلب على نفسي ، واني أحسست بالسرور بسبب اضطرابها وحيرتها . وشبعت كما يشبع المتنعم حين لاحظت أن ذلك اليوم كان أبغض في فمها مرَّ المذاق . ولكن المسكينة لم يداخلها شك فيما فاض به قلبي من السرور الشرير ألم نرضع من ثدي أم واحدة ، ألم تتبادل الحب منذ نعومة أظفارنا ، لقد جاءت إذن وانثنت بمراضني وطوّقت جيدي بذراعيها ، وكانت شفتاها مغراوين مضطربتين عند ما وجهت اليَّ الكلام بصوت حزين قائلة :

« ما العمل يا أختي « راحيل » إني أثمتُ كثيراً مما أبرمه والدي . لقد انتزع منك حبيبك « ليدفع به إليَّ . ولكي أشعر بخجل عظيم لأني سأخدع رجلاً سليم النية مثله . فكيف « أجرؤ على أن أذهب اليه بينما هو ينتظرك ، وكيف أستطيع الزواج به ؟ أشعر أن رجلي ، تأبيان « حملي ، وأن قلبي ينصحني بأن لا أفعل ، إني خائفة يا راحيل ، لأنهُ من المستحيل أن لا يعرفني « من النظرة الأولى ، وأي خجل يستولي عليَّ إذا طردني في الحال من منزله . سيحتقر

« الأطفال الصغار من الجيل الثالث ويقولون : كانت « لبنا » قبيحة المنظر فشاءت أن ترمي « بنفسها في أحضان رجل أبيها وطردها كما يطرد الكلب الجرب . فكيف العمل يا « راحيل » « ساعديني يا أختي العزيزة . هل أرضى بالمغامرة أم أعصى مشيئة والدي الشديد الوطأة . ماذا « أصنع كي لا يعرفني يعقوب ، أو كي لا يعرفني قبل الأوان لئلا يلحق العار بريئة . ساعديني « يا « راحيل »، أضرع اليك باسم الله الغفور الرحيم »

« اللهم كانت ثورة غضبي لا تزال في كامل اضطرامها ، وكانت تتراوح في رأسي أفكار شريرة بالرغم من حبي لأختي . كنت أفرح باضطرابها فرحي بأكلة شهية . ولكنني عند ما سمعتها تتلفظ باسمك القدوس ، اسمك المقدس بين كل الأسماء ، عندما سمعتها تذكر رحيل شعرت كأن شعاعاً من نار يخترقني ، وأن قلبي يتسع ، وان صلاحك العظيم ونبض كرمك ينفذان الى الصميم من نفسي المظلمة . لأن من معجزاتك الخالدة أن تزول الحواجز التي أقامها بيننا وبين العالم عندما نرى غيرنا يتألم وعندما نشعر بحنته

« شعرت فجأة بأوجاع أختي كما لو كانت أوجاعي فلم أعد أفكر بنفسي ، ونسيت أحزاني الا الى إستغاثتها فرثيت لشقائها وأشفقت عليها — أصغ جيداً يا الهي لأقوال عبدتك الحنونة — لقد أشفقت عليها عندما رأيتها تذرف الدموع كما أذرفها أمامك اليوم . أشفقت عليها عندما توسلت الي أن أرحمها كما تتوسل اليك اليوم شفتاي إخوارتان الخائفتان مالك الرحمة فسمتها بالرغم من نفسي الغارمة أن تخدع يعقوب ، وأطلعتها على علامة اتعارف بيننا . وقلت لها أن تسكب ثلاثة في حينه قبل دخولها خيمته . وهكذا بألمي من حبي لك ، استحقت أن أتمادى في الشر ، التي كانت تنقذ ثأرها في نفسي كما استطعت أن أخون يعقوب وحبي له

« أصغت « لبنا » لحديثي ثم لم تستطع أن تضبط نواحتها فتراميت على قدمي تقبل يدي وأذيال ثوبي . هكذا جعلت مخلوقاتك كلها ظلوماً لهم دليل على صلاحك لتقدس لسلسل التواضع عليهم وتحركت نفوسهم مدفوعة بعوامل معرفة الجميل فرثيت كل واحدة منا من ذراعي أختها تبادل القبل وابتل خدا كل واحدة بدموع الأخرى . عادت « لبنا » الى خيمتها تطيب ورثيت أن تذهب الى خيمة يعقوب . ولكنها عند ما أرادت النهوض عاودها الاضطراب فأطلت عيناها وارتجفت شفتاها وعلاها الاصفرار وقالت لي :

« أشكرك يا أختي طيب معاملتك لي ، أشكرك وسوف أفعل كما أمرت ولكن ماذا أفعل « إذا لم يقع يعقوب في فخ المنصوب له . تداركيني بنصائحك يا أختاه وأرشديني . قولي لي ماذا « أفعل إذا تحدث الي كما يتحدث اليك . هل أستطيع أن التزم الصمت عندما يخاطبني كما يتحدث « الحطيب الى خطيبته ، إن هذا أمر محال لأنه إذا سمع صوتي أدرك حديثي له . فماذا أفعل « إذا كلمني ، استحلتك بالله الرحيم ان تسعفيني بحكمتك وشورتك »

« ومرة أخرى يا إلهي عندما تمت امتحانك المقدس شعرت كأن نوراً ملتهباً يخترقني فأخذت ما في قلبي من قسوة وفتحت نفسي للصلاح والرحمة وأشفقت عليها في محنتها . ومن جديد عشقت قلبي المكلوم وتفلت على عذابي . وكانت الرحمة قد جعلت مني شخصاً مستعداً لقبول كل التضحيات . فقلت لها :

« اطمئني يا « ليّا » واطرحي عنك الهموم ، فحيًّا بالله القيوم سأفعل ما يجب فعله كي لا يفهم يعقوب شيئاً قبل أن يعرفك . اصغي إليَّ جيداً : بعد قليل سأدعي نفسي في خيمته قبل أن يقودك والدنا إليها وأقف في أحد أركانها المظلمة بالقرب من مضجعكما فإذا تحدث يعقوب أجيبه بدلاً منك فيسمع صوتي حينئذ يزول شكوكه إذا كانت لديه شكوك تساوره فلا يتردد أن يضمك بين ذراعيه . . . أتفهمين ذلك يا « ليّا » مدفوعة بالحب الذي تبادلناه منذ طفولتنا ، ومدفوعة كذلك بحب الأولاد الذي الرحيم الذي توسلت إليَّ به لكي يشمل برحمته أبنائي وأحفادي عندما يحتاجون بدورهم إلى أن يتوسلوا باسمه المقدس

« فعانقتني أختي من جديد وقبلت شفتي . وكانت قد تبدلت حالتها فكأنَّ امرأة أخرى حلت محل تلك التي ارتمت على قدمي . وذهبت بعد ذلك مطمئنة وتقدمت إلى يعقوب بخجلة بنتها . أما أنا فوثبت بما وعدت به وتسللت سراً إلى خيمة يعقوب واختبأت بالقرب من السرير . سمعت بعد قليل صوت انشراح المفرحة التي كانت تدق خطوات العروسين . فلقد وصلا إلى باب الخيمة ، وبعد مدخلها تردد يعقوب قليلاً منتظراً إشارة التعارف المتواضع عليها بينه وبين قبلته « ليّا » التي في حينه . فسمع يعقوب بصوتها ما يفسر له في حيرة وقدمها إلى مضجع العرس بالقرب من شقيقتين المتصارعتين . وقبل أن يضمها إليه سألها : « هل أنت حقيقة يا راحيل التي أشعر بها بقربي » عندئذ كانت التجربة قاسية حقاً كما تعرف ذلك يا مولاي بكل شيء . ولكني استمعت إلى الصوت الذي رأى أنه كان الفرح صارخاً صارماً مدمراً في جسمي ، وقلت : « أنا زوجتك يا يعقوب » فاطمأن الرجل الذي يعاني أختي مواصلاً بكل ما في وجدانه من قوة . اللهمَّ إن قدرتك خارقة كما أن حد المجد قطع ، فأنت تعلم كيف بقيت بالقرب منه بحيث كنت أصوب بصري بلا انقطاع على جبهته كأني على جبر القضاء لأني أشرف أن يعقوب لا يبدي عند سماع صوتي في حينه « ليّا » إلاَّ لأنه يتوهم أني أنا التي يضمها بين ذراعيه . أنا التي كنت اشتهيه بكل حرارة قلبي . اذكر يا إلهي الحاضر في كل مكان ، تلك الليلة التي قضيتها مقربة ، وقد أدميت ركبتاي وقلبي ، مرغمة أن أسمع ما يجري بينهما ، ذاكرة أني محرومة من كل هذا الحب الذي كان يعقوب يغمر به « ليّا » والذي يجب ان يكون من نصيبي . فقد ظلت راكعة بقربهما سبع ساعات ، بل سبع أبديات ، ممسكة أنفاسي ، خنقة الأصوات التي كانت تتردد في صدري ، مصارعة نفسي كما صارع يعقوب فيما مضى ملاكك . أنك تعلم ان هذه الساعات

السبع خلتها أطول من سنوات الانتظار السبع التي أرادها والدي . على أني لم أكن لأستطيع احتمال تلك الليلة الرائعة ، ولم أكن لأستطيع احتمال آلام كالتي قاسيتها فيها ، لو لم أذكر عبثها اسمك المقدس ولو لم تتداركني فكرة صبرك الطويل الذي لا ينى فتشد في عزيمتي وتقويني .

« هذا ما فعلته اللهم » ، وهو العمل الوحيد الذي افتخر به في حياتي على هذه الارض لأني تشبهت بك في صبرك ورحمتك ، لان احزان نفسي كانت تفوق طاقة البشر . لا أدري هل أجريت على امرأة عجة حائلة كالتي عرفتها في تلك الليلة المفجعة التي كانت أطول الليالي على أني ثبت لها . وعندما سمعت صوت صياح الديك نهضت من مكاني منهوكة الجسم بينما كانا هما ايضاً قد استسلما للتعب والنوم . فأسرعت نحو منزل والدي لان الخيلة صارت قريبة الانكشاف . وكانت أسناني تصطك عند ما أخذت أفكر فيما قد يحدث وتتشنج . ولم أكد أستلقي على مضجعي حتى سمعت صياح ذلك الذي خدع وتشاءم . وقد جاء في الاقتباس السور الذي حملا بيده فأماً يضرب به « لابان » والدي الشيخ الذي سُمق في مكانه خوفاً وفتح شحاذ رش هيافاً ـ راحيل . وعند ما سمعت الذي امراحيل المقدس تشجعت وصرخت فلاقاه يعقوب لأحزن حتى صوتي . وكان الغضب قد أعماه عند ما رآني ، إذ انني ساعدت على خدعه ، لانه لم يلبثني خارجاً حتى ارتميت أرضاً . ولكنني لم اشك لانني كنت أعرف أن غضبه يزول على حبه العظيم . وقد رأيته وكان في ثورته قد رفع الفأس ليهوي بها علي ، فرأيته ثاني يا إلهي لما تقدمت أو خرشك ـ لقتلني شاكيه لاني اذا كنت تدخدته لأباح حراماً عظيماً فقد كنت أعرف كذلك أن غضب [illegible]

« وعندما رآني يعقوب مرتمية عند الاباض فاهما أوجه معطفة [illegible] بارحة فهوت من يديه الفأس التي رفعها ليضربني بها واحنى علي وانار شفتي [illegible] تنتصر رحمته علي بل شملت والدي « لابان » فغفر له جنايتي ، وما يغفر له [illegible] واتفق مع والدي على خدمته سبع سنوات أخرى أخذني بعدها زوجاً تامة فرحت به أيما فرح غذيتهم بلبن جسمي ودلالاً بك ، أولاداً أوصيتهم أن يرجعوا إلى حيث رأوني ولدت ، ليعلن الكبير أنك ، اللهم أيها الشفيق الرحيم العظيم رحمتك أقدمه لك اليوم في هذه السطور ، فافعل كما فعلت يعقوب . دع فأس عذابك يسقط من يدك وبدد غيوم غضبك ، فهو أكن رحيماً لأن « راحيل » كانت رحيمة . اظهر صبرك لأني برضت عن صبري ، واشفق على [illegible] ترفق اللهم بأبنائي وبناتي ، وجنب أورشليم الدمار »

كانت « راحيل » قد رفعت صوتها حتى كاد يخترق السبع الطباق . ولكنها بعد ابتهالها الصاعدة من قلبها خارت قواها فسقطت ساجدة وحنت رأسها الى الارض فسوّج شعرها على جسمها المرتجف كأنه موج سيل أسود . وكانت « راحيل » في سجدتها ترتعد فرائصها في انتظار جواب الله

ولكن الله ظل صامتاً ، ولا شيء أشد هولاً في السماء وعلى الارض من سكوت الله . فهو اذا لزم الصمت وقف الزمن ، وخبا الضوء ، واختلط النهار بالليل فصار شيئاً واحداً ، وشاع في فضاء اللانهاية فراغ كالذي كان قبل الخليقة . عندئذٍ تقف كل حركة ، فلا تجري الأنهار ، ولا تزهر الأشجار ، ولا يتحرك البحر اذا خلا من صوت الله الذي يهبه نفسه لا تستطيع اذن بشريةٌ احيانا تهزّات حد الصمت ، ولا يستطيع قلب بشريٌّ مقاومة ضغط هذا الفراغ الذي لا يوجد فيه غير الله . بل الله نفسهُ ، وهو ينبوع كل حياة ، لا يكون الاله الحي ما دام صامتاً .

ولم تكن راحيل على قوة صبرها تستطيع أن تحتمل صمت الله أمام تضرعها في محنتها الصارخة . فرفعت عينيها مرة أخرى نحو غير المنظور وبسطت يديها نحو السماء وقذفت بهذه الكلمات الثائرة في ثورة غضب

« أم تسمعني يا إلهي العليم بكل شيء ؟ أم تفهم قولي أنت الذي لا تخفى عليك خافية ، أم يجب أن أصرخ عاراتي ، أنا خادمتك الجاهلة . أصغ إليَّ يا الله ذا السمع التقي . عرفتُ أنا الغيرة أيضاً الغيرة عندما هاجم يعقوب أختي كما تعرفها أنت اليوم عند ما تزوج أبنائي يحرقون البخور لآلهة غريبة . ولكنني أنا المرأة الضعيفة عرفت كيف أمالك غضبي ، كنت وحيدة حبيبة لك أنت الذي كنت أؤمن بأنهُ رؤوف رحيم . لقد أشفقت عليَّ « ليا » وأشفق يعقوب عليَّ ، فلا تنسَ ذلك يا الله . نحن اللتين ليس سوى شقيقتين قاتلنا على شر الغيرة . أما أنت أيها الاله القدير أنت الذي خلقت كل شيء وسويتهُ ، أنت أول كل شيء وآخره ، أنت أعظم العظماء ، بينما نحن لسنا سوى قطرات ماء في محيطك ، ألا تريد ان تعرف الرحمة سبيلاً اليك ؟ اعلم ان أبنائي شعب شرس معاند ، وانهم كثيراً ما يثورون على التقدس الذي فرضته عليهم . ولكنك انت العادل الحكيم . أفلا يجب ان يكون صبرك أعظم من كبريائهم ، ورحمتك أبعد من اخطائهم . ليس من الجائز يا الهي ان توجد مخلوقة تستطيع ان تجعلك تنحني أمام ملائكتك ، فيقال : عاشت مرة على وجه الارض امرأة صغيرة تدعى « راحيل » عرفت كيف تكسر غضب إلهها — رب جميع الناس والأشياء — بخضوع لثورة غضبه كما يخضع الخادم لسيده . كلا يا الهي . ان هذا مستحيل ، لأنهُ اذا كان الأمر كذلك لم تعد رحمتك لا نهاية لها ، وزالت عنك صفة اللانهاية . بل زالت عنك صفة الألوهية . أجل ، بعد ذلك الاله الذي تمثلته في أحزاني ، ذلك الذي سمعت صوته في صراخ الحق المفجع ، صرت أنهُ غريباً . أنهُ غضب ، أنهُ قساوة ، أنهُ انتقام . أما أنا « راحيل » ، أنا التي لم أحقد غير أنهُ محبة وصلاح ، أنا « راحيل » أجحدك أمام ملائكتك أنهم يستطيعون أن يخفضوا رؤوسهم ، وأن يحذو مختاروك وأبياؤك حذوهم . ولكن انظر ! انا « راحيل » ، الأم التي لا أحني رأسي وأظل منتصبة أمامك ، وأتقدم اليك قبل أن تنتقم من أبنائي وأنهك بأن أقوالك تناقض مع مشيئتك ، وان كلمات الغضب التي ينطق بها فمك

تتعارض مع قلبك . احكم اذاً يا لغي بينك وبين أقوالك . فاذا كنت حقاً اتقه الغضب الذي تتذر به فارمني في ظلمات الجحيم مع ابنائي لأني لا أريد أن أراك على هذا الوجه . اني أكره شدة نقمة غيرتك . أما اذا كنت اتقه الرحمة الذي أحبته منذ الأزل والذي عشت وفقاً لتعاليمه فاظهر بهذه الصفة، وأنر وجهي بنور سلاحك ، وجنب أولادي والمدينة المقدسة الهلاك »

***

عندما قذفت راحيل نحو السماء بهذه العبارات المرة خالتها قواها من جديد فهوت على ركبتيها ورمت بأسها الى الوراء في انتظار جواب الملي

وكان الهول قد أخذ مأخذه من الأنبياء والشيوخ فابتعدوا عنها لأنهم ظنوا أن برقاً سيصعق الكافرة التي تجرأت على مخاصمة الله . ثم أخذوا يجولون بأبصارهم في الفضاء في حيرة ووجل ولكنهم لم تظهر أية إشارة في السماء .

وفي أثناء هذا أخذ الملائكة الذين أخفوا رؤوسهم أمام غضب الله ، ينظرون من خلال أجنحتهم في دهشة وانصراف إلى هذه المخلوقة التي سمحت لنفسها أن يدخلها الشك في ما تعالى على كل شيء قدير ، فرأوا فجأة نوراً يشع على وجه « راحيل » ويضيء حيثما كان كل جسم يستقبل نوراً ، وكانت دموع الندامة على خدي هذه الأم تعيد كأنها لهب الصباح . فأدرك الملائكة بهذه الظاهرة ان إلهة قد نظرت الى وجه « راحيل » وان حمداً يضيء عليها فيجعل لها نوراً ، ورتلوا التسبيح بأن الله يحب تلك التي تبكي ويرفه الأطهر مدفوعة بشدة إيمانها ، ان تسعد اكثر من حبه لأولئك الذين خضعوا في تعدي واستسلام ، فزال خوف الملائكة وقد ابتهجوا مطمئنين . ولاحظوا ان وجود الله قد أعاد الضياء ونوراً الى الأشياء جميعاً . ان نزوة ابتسامته المطمئنة تفكر على لانهاية الفضاء . فسبح الملائكة اجتماعهم في حقيقة نصحه تقدير المواء الفني فامتلأ من هذا جميعه موسيقى ناعمة في بياض السماوات ، وصار الضياء منبثقاً من وجه الله نهر لا ينضب منبعه . والنور في أثناء الزرقاء ، وزالت ظلمة منعطفة الصور الملائكة ، الغربي والشرقي ، ويوسع بعد عهد الأرض ، في هذا الصحن الى غاية عطر ينبعث من نسمة مقدسة

أما الناس الذين على الأرض ، والذين يظنون ابداً جاهلين لأصوات الله ، فانهم لم يفطنوا الى مايجري في السماء . فقد ظلوا منذرين بأكتافهم ، ساجدين ، حافين رؤوسهم الى الأرض في حزن وألم . وفجأة شعروا ، الواحد بعد الآخر ، كأن نسمات الريح تهب فوق رؤوسهم فرفعوا النظارة والشك تملأ نفوسهم وبهتوا لما رأوه . انهم رأوا على جدار الغيوم المتصدع قوس قزح بديع جاء يحمل الى أممهم « راحيل » بألوانه السبعة وبريق لمعانه النبأ السار يبشرها بأنهم قد اصطلحوا مع الله